الكتاب الأول

تمهيد

فى حضارة بحر إيجه

من ٣٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق. م.

أهم الحوادث فى الكتاب الأول

مرتبـــة حسب تواريخها

ملحوظة : كل التواريخ المذكورة هنا تقريبية ، وتواريخ الأفراد هى تواريخ السنين التى بلغ فيها نضجهم العقلى ، وقد افترضنا أن هذه السنين هى التى تكون بعد أربعين عاماً من مولدهم ، أما تواريخ مواليدهم ووفاتهم فسنذكرها إن استطعنا فى فهرس الأعلام . وتواريخ الحكام هى تواريخ حكمهم ، وإذا وضعنا علامة الاستفهام أمام اسم واحد منهم فعنى هذا أن التاريخ لا تذكره إلا الرواية اليونانية وحدها .

ق . م .

— ٩٠٠٠ العصر الحجرى الحديث فى كريت .

٣٤٠٠ — ٣٠٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .

٣٤٠٠ — ٢١٠٠ العصر الحجرى الحديث فى تساليا .

٣٤٠٠ — ١٢٠٠ العصر البرنزى فى كريت .

٣٠٠٠ — ٢٦٠٠ الطور الثانى من الحضارة المنوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .

— ٣٠٠٠ استخراج النحاس من قبرص .

— ٢٨٧٠ أول استقرار معروف فى طروادة .

٢٦٠٠ — ٢٣٥٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المبكرة .

٢٣٥٠ — ٢١٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى .

٢٢٠٠ — ١٢٠٠ العصر البرنزى فى قبرص .

٢١٠٠ — ١٩٥٠ الطور الثانى من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية لوسطى . المجموعة الأولى من القصور الكريتية .

٢١٠٠ — ١٦٠٠ العصر النحاسى — الحجرى فى تساليا .

١٩٥٠ — ١٦٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية الوسطى ،

— ١٩٠٠ تدمير المجموعة الأولى من القصور الكريتية .

١٦٠٠ — ١٥٠٠ الطور الأول من الحضارة المينوية الهيلادية ، والسيكلادية المتأخرة (الميسينية) ، المجموعة الثانية من القصور الكريتية .

١٦٠٠ — ١٢٠٠ عصر البرنز فى تساليا .

— ١٥٨٢ تأسيس أثينة على يد سكريس .

١٥٠٠ — ١٤٠٠ الطور الثانى من الحضارة المينوية الهيلادية الميسينية والسيكلادية المتأخرة .

١٤٥٠ — ١٤٠٠ تدمير المجموعة الثانية من القصور الكريتية .

— ١٤٣٣ دوكليون والطوفان .

١٤٠٠ — ١٢٠٠ الطور الثالث من الحضارة المينية الهيلادية (الميسينية) السيكلادية ، المتأخرة ، قصور تيرنز وميسينية .

— ١٣١٣ تأسيس طيبة على يد كادموس .

١٣٠٠ — ١١٠٠ عصر سيطرة الآخيين على اليونان .

— ١٢٨٣ جـ بلوبس إلى إليس .

١٢٦١ — ١٢٠٩ هرقل

— ١٢٣٠ ثيثوس فى أثينة ، وأوديب فى طيبة ، ومينوس وديدلوس فى نوسس .

١٢٥٠ — ١١٨٣ « المدينة السادسة » فى طروادة ؛ عصر أبطال هومر .

— ١٢٢٥ رحلة أجمنون .

— ١٢١٣ حرب السبعة على طيبة .

— ١٢٠٠ ارتقاء أجمنون العرش .

١٢٩٢ — ١١٨٣ حصار طروادة .

— ١١٧٦ ارتقاء أورستيز .

— ١١٠٤ غزو الدوريين لبلاد اليونان .

الباب الاول

كريت

الفصل الأول

البحر المتوسط

إذا ما دخلنا أجمل البحار كلها وتركنا من خلفنا المحيط الأطلنطى ومضيق جبل طارق ، انتقلنا من فورنا إلى حلبة التاريخ اليونانى . ويقول أفلاطون عن بنى وطنه الذين استقروا فى هذا الميدان : « لقد نزلنا فى شواطئ هذا البحر كما تنزل الضفادع حول بركة الماء »[1] . على هذه الشواطئ النائية ، أنشأ اليونان قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، مستعمرات مزعزعة غير وطيدة الأساس يحيط بها البرابرة من جميع الجهات : فى همرسكوبيوم Hemeroscopium وأمبورياس Ampurias فى أسبانيا ، ومرسيليا وتيس فى فرنسا ، وفى كل مكان تقريباً بإيطاليا وصقلية . وأنشأ المستعمرون اليونان مدناً زاهرة فى قورينى Cyrene بشمال أفريقية وفى نقراطس بدال النيل ؛ وبعثت مغامراتهم النشيطة الحركة والحياة فى جزائر بحر إيجة وشواطئ آسية الصغرى فى ذلك الوقت البعيد ، كما تبعثهما فيها هذه الأيام ؛ وشادوا مدناً كبيرة وصغيرة لتكون محاط لتجارتهم الواسعة على شواطئ الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ، ولم تكن أرض اليونان الأصيلة إلا جزءا صغيراً من العالم اليونانى القديم .

ترى لماذا نشأت مجموعة الحضارات الثانية على شواطئ البحر المتوسط كما نشأت المجموعة الأولى قبل ذلك على ضفاف الأنهار فى مصر وأرض الجزيرة

والهند ، وكما ازدهرت الثالثة بعدها على شواطئ المحيط الأطلنطى ، وكما يحتمل أن تنشأ الرابعة على شواطئ المحيط الهادى ؟ هل كان السبب فى نشأتها هو اعتدال مناخ البلاد المطلة على هذا البحر ؟ لقد كانت الأمطار السنوية تروى الأرض وتخصبها فى الزمن القديم كما ترويها وتخصبها فى هذه الأيام[٢]، وكان البرد المعتدل يبعث فى أهل البلاد النشاط ؛ وكان فى وسع الأهلين يعيشوا فى الهواء الطلق طوال العام تقريباً ، تدفئهم الشمس ولكنها لا توهن أجسامهم . ومع هذا فإن سطح الأرض حول هذا البحر وفى جزائره لا يبلغ من الخصب فى مكان ما مبلغ أرض الأودية الغرينيـة فى أحواض الكنج أو السند أو دجلة أو الفرات أو النيل . وقد يبدأ جفاف الصيف مبكراً عن عادته ، أو قد يطول أكثر مما يستحب ، وتحد فى كل مكان فيه الأرض الخصبة لا تبعد إلا قليلا من القشرة الغرينية المتربة الرقيقة . وتقع إلى شمال هذه الأراضى التاريخية بلاد معتدلة المناخ وإلى جنوبها أرض مدارية ؛ وكلها أخصب منها تربة . ولما أضنى الجهد الفلاحين سكان شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، ووجدوا أن التربة لا تجود عليهم بما يعوض عنهم جهودهم ، أخذوا يتخلون عن فلحها شيئاً فشيئاً ؛ ويستبدلون بذلك زراعة الزيتون والكرم . وكانت تلك البلاد تتعرض من حين إلى حين إلى أخطار الزلازل ، فتنشق الأرض تحت أقدام السكان على طول بعض العيوب الأرضية التى تعد بالمئين ، فترهبهم وتدفعهم إلى نوبات من التقى والإيمان . ولم يكن المناخ هو الذى جاء بالحضارة إلى بلاد اليونان ، وأكبر الظن أن المناخ لم يكن سبب قيام الحضارة فى قطر من الأقطار .

أما السبب الذى جذب الناس إلى بحر إيجه فهو جزائره . فلقد كانت هذه الجزائر جميلة ؛ ولا ريب فى أن الملاح المتعب كان ينشرح صدره حين يرى اختلاف ألوان التلال المظلة التى تقوم كالهياكل فوق مياه البحر وتنعكس عليها . وقلما يجد الإنسان فى هذه الأيام مناظر أجمل من منظر هذه التلال

أو أكثر منها إثارة لحاسة الجمال . وإذا ما طاف الإنسان ببحر إيجة أدرك لساعته لم أحب سكان هذه الشواطئ والجزائر بلادهم حبهم للحياة أو أكثر منها ، ولم كانوا يرون كما يرى سقراط أن النفي أشد ألماً من الموت . يضاف إلى هذا أن الملاح الذى كان يطوف بتلك البحار فى الزمن القديم كان يجد فى الجزائر منثورة كاللآلى فى جميع الجهات ، وكان يراها متقاربة فلا تكاد سفينة تبعد عن الأرض أكثر من أربعين ميلا ، سواء أكان مسافراً من الغرب إلى الشرق أم من الشمال إلى الجنوب . وإذ كانت هذه الجزائر البارزة فوق سطح الماء هى قلل سلاسل جبلية قديمـــة ، متصلة بعضها ببعض ، كسلاسل الجبال فى بلاد اليونان القارية ، طغى عليها البحر على توالى الأيام[٣] ، فإن عين الملاح المرتقب كانت تقع على الدوام على قلة من هذه القلل المحببة كأنها تحييه وترحب بمقدمه ؛ وكانت أشبه بمنارات تهتدى بها السفن فى وقت لم تكن تهتدى فيها بالبوصلة البحرية . وفوق هذا كله فإن حركات الريح والماء كانت تعين الملاح على الوصول إلى هدفه . فقد كان تيار مائى قوى أوسط يسير من البحر الأسود إلى بحر إيجة ، وكانت تيارات أخرى مضادة له تسير نحو الشمال محاذية شواطئ البحر ، وكانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بانتظام فى فصل الصيف فتساعد السفن التى خرجت من موانيها لتأتى بالحب والسمك والفراء من البحر اليكسينى Euxine[*] على العودة إلى موانيها فى

(*) كان اليونان يسمون البحر المتوسط **Ho Ponttos** أى الممر أو الطريق ، وكانوا يسمون البحر الأسود تسمية يراعون فيها التجميـــل فى اللفظ **Pontos Euxienos** البحر المحب للأضياف — وربما كان سبب هذه التسمية أنه يقابل السفن المقبلة من الجنوب برياح وتيارات معاكسة لها . وكانت الأنهار الواسعة التى تصب ماءها فيه ، والضباب الكثير الذى يقلل من سرعة البحر بجعلان مستوى الماء فى البحر الأسود أعلى من مستواه فى البحـــر المتوسط ؛ ومن أجل هذا كان تيار مائى قوى يندفع خلال مضيق البسفور (مخاضة الثور) الضيق ومضيق الله دنيل إلى بحر إيجه ، وكانوا يسمـــون بحر مرمرة البروپنتيس **Propontis** أى ما قبل البحر .

الشمال . وكان الضباب نادراً فى البحر المتوسط ، كما أن أشعة الشمس التى لا تكاد تحتجب عنه ينشأ منها بالليل وبالنهار نسيم البر والبحر ، حتى ليستطيع الإنسان من بدء الربيع إلى آخر الخريف أن يستعين فى أى ثغر من ثغوره — إلا القليل النادر منها — بنسيم الصباح فى خروجه منه وبنسيم المساء فى عودته إليه .

فى هـــذه البحار الصالحة للتجوال نَمى الفينيقيون الكسابون واليونان القوازب فن الملاحة وعلمها ، فبثوا فيها سفناً معظمها أكبر وأسرع من جميع السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط قبلهم ولكنها كانت أيسر منها حركة ، وأضحت الطرق البحرية بين أوربا وأفريقية من جهة وآسية من جهة أخرى مارة بقبرص وصيدا وصور أو ببحر إيجه والبحر الأسود ، وأضحت على الرغم من قراصنة البحر وما يتهددها من أخطار ، أقل نفقة من الطرق البرية الطويلة الشاقة المعرضة للأخطار والتى كان ينقل عليها فى الأيام الخالية الكثيرة من تجارة مصر والشرق الأدنى . وبذلك اتجهت التجارة وجهات جديدة ، وضاعفت عدد السكان الجديد ، وأوجدت ثروات جديدة ، فاضمحل شأن مصر ، وأعقب ذلك اضمحلال شأن أرض الجزيرة وفارس ، وأقامت فينيقية إمبراطورية من المدائن على ساحل أفريقية وفى صقلية وأسبانيا ، وازدهرت بلاد اليونان ازدهار الوردة المرتوية .

الفصل الثانى

كشف كريت الثانى

« وفى وسط البحر القاتم كلون النبيذ أرض تسمى كريت ، وهى أرض جميلة غنية يحيط بها الماء ، وفيها خلق كثيرون يخطئهم العد ، كما أن بها تسعين مدينة[٤] » . لما أنشد هومر هذه الأبيات ، ولعل ذلك كان فى القرن التاسع قبل الميلاد[*]، كانت بلاد اليونان قد نسيت أو كادت تنسى ، وإن لم ينس الشاعر ، أن الجزيرة التى بدت له عظيمة حتى فى ذلك الوقت ، كانت فى وقت من الأوقات أعظم مما هى وقتئذ ثروة ، وأنها كانت تسيطر بأسطولها القوى على معظم نواحى بحر إيجة وعلى جزء من أرض اليونان الأصيلة ، وأنها قد أنشأت قبل حصار طروادة بألف عام حضارة من أعظم الحضارات الفنية فى تاريخ العالم . ولعل هذه الحضارة الإيجية التى كانت قديمة بالنسبة له بقدر ما هو نفسه قديم بالنسبة لنا ، هى التى عادت إلى ذاكرة هومر وهو يتحدث عن عصر ذهبى كان الناس فيه أكثر حضارة وأرق حاشية منهم فى أيامه المضطربة .

ولقد كان كشف هذه الحضارة المفقودة مرة ثانية عملا من أجل الأعمال فى تاريخ علم الآثار الحديث . فها هى ذى جزيرة تبلغ مساحتها قدر مساحة أكبر جزائر السكلديز عشرين مرة ، جوها جميل ، تنتج حقولها غلات مختلفة ، وتلالها كانت فى وقت من الأوقات كثيرة الأشجار ، وموقعها من أصلح المواقع للتجارة والحرب ، فهى فى منتصف الطريق بين فينيقية وإيطاليا ، وبين مصر وبلاد اليونان . ولقد أشار أرسطاطاليس إلى هذا

(*) كل التواريخ الواردة فى هذا المجلد قبل الميلاد إلا إذا نص على غير ذلك أو كانت واضحة الدلالة على أنها بعد الميلاد .

الموقع الحسن وذكر أنه « هو الذى مكن مينوس Minos من إقامة إمبراطورية لها فى بحر إيجة(٥) . ولكن قصة مينوس ، التى يسلم بصحتها كل الكتاب الأقدمين ، وقد رفضها الكتاب المحدثون وعدوها خرافة من الخرافات . وقد كان من عادة المؤرخين قبل أيامنا هذه بستين عاماً لا أكثر أن يقولوا كما قال جروت Grote إن تاريخ الحضارة فى بحر إيجة يبدأ بغزو الدوريين أو بعصر الألعاب الأولمبية ؛ ثم حدث فى عام ١٨٧٨ م أن عثر تاجر كريتى يسمى مينوس كلكيرنوس Minos Kalikairinos — وهو اسم من أليق الأسماء للكشف الذى وفق إليه — عثر هذا التاجر على آثار قديمة فى سفح أحد التلال القائمة فى جنوب قندية(*) . وزار شليمان Schliemann العظيم هذا الموقع فى عام ١٨٨٦ ، بعد أن لم يمض على كشفه عن ميسينى Mycenae وطروادة إلا زمن قليل ، وأعلن عن اعتقاده بأن تحت ثراه آثار مدينة كنوسس القديمة ، وأخذ يفاوض مالك الأرض فى أن يسمح له ببدء أعمال الحفر على الفور ، ولكن المالك أخذ يساوم ويماحك وحاول أن يمكر به ؛ وكان شليمان تاجراً قبل أن يكون عالم آثار ، فتركه مغضباً ، وأضاع بذلك فرصة ذهبية لو اغتنمها لأضاف هو حضارة جديدة إلى حضارات التاريخ ، ومات بعد عام واحد من ذلك الوقت .

وفى عام ١٨٩٣ ابتاع دكتور آرثر إيفنز Arthur Evans عالم الآثار البريطانى من امرأة فى أثينة عدداً من الحجارة البيضاء كانت تمائم ، وقد أدهشه ما كان محفوراً عليها من كتابة أثرية لم يكن فى وسع عالم من العلماء أن يقرأها . وما زال يتقصى مصدر هذه الحجارة حتى عرف أنها من كريت ، فحصل على إذن بالسفر إليها ، وأخذ يطوف فى أنحاء الجزيرة ويجمع منها مايعتقد أنه نماذج للكتابة الكريتية القديمة . وفى عام ١٨٩٥ ابتاع جزءاً من الموقع الذى كان شليمان والمدرسة الفرنسية يعتقدان أنه موقع كنوسس وبعد أن قضى

(*) العاصمة الجديدة للجزيرة واسمها الرسمى الحديث هرقليوم Heraclium

تسعة أسابيع من ربيع ذلك العام يحفر فيه مستخدماً فى ذلك خمسين رجلا أماط اللثام عن أعظم ما أسفرت عنه البحوث التاريخية الحديثة من كنوز ، نقصد بذلك قصر مينوس . وليس فيما كشف من الصروح القديمة صرح يعادل هذا الصرح المعقد فى اتساعه ، وأكبر الظن أنه هو قصر التيه الذى لا نهاية له ، والذى اشتهر فيما يروى من القصص اليونانية القديمة عن مينوس ، وديدلس Deadalus ، وثيسيوس Theseus ، وأدريانى Adriane والمينوتور Minotaur . وكأنما شاءت الأقدار أن تؤيد ما أوحت به قريحة إيفنز إليه ، فعثر فى هذه الحرافات وفى غيرها على آلاف من الأختام وألواح الصلصال ، عليها رموز تشبه الرموز التى جاء إلى كريت يتعقبها ، وكانت النيران التى دمرت قصور كنوسس قد حفظت هذه الألواح ، ولا يزال ما عليها من الكتابة التصويرية ومن الحروف الهجائية غامضاً يخفى قصة بحر إيجة القديمة(*) .

ولما ذاع نبأ هذا الكشف هرع العلماء إلى كريت من كثير من الأقطار . وبينا كان إيفنز يعمل فى كنوسس كشف جماعة من الإيطاليين ذوى الجلد والعزيمة — هلبهير Halbherr ، وبرنيير Pernier ، وسفنيونى Savignoni وبرنيبنى Paribeni — فى حاجيا تريادا Hagia Triada (الثالوث المقدس) — تابوتاً عليه صور من الحياة الكريتية واضحة الدلالة ، كما كشفوا فى فستس Phaestus عن قصر لا يفوقه فى سعته إلا قصر ملوك كنوسس . وفى هذه الأثناء كان اثنان من الأمريكيين هما سيجر Seager ومستر هوس Hawes يقومان بأعمال الكشف فى حفائر ڤاسلكى Vasiliki ، ومكلوس Mochlos ، وجورنيا Gournia ؛ وكان البريطانيون — هوجارث Hogarth ، وبوسنكوت Bosaquet ، ودوكنز Dawkins ، وميرز

(*) وظل إيفنز يعمل بجهد ومهارة فى كنوسس سنين طوالا ، ومنح لقب فارس Knight مكافأة له على جهوده ، وأتم فى عام ١٩٣٦ تقريره الرائع المسمى « قصر مينوس » فى أربعة مجلدات .

Myres ينقبون فى پليكسترو Palaikastro وپسيكرو Psychro وزكرو Zakro . واهتم أهل كريت أنفسهم بأعمال الحفر والتنقيب فى ديارهم ، فأخذ زنثوديديز Xanthoudidis وهتزيداكس Hatzidakis يحفران فى مواقع المساكن والمغارات والمقابر القديمة فى أركلوكورى Arkalochori وتيليسس Tylissus ، وكومازا Koumasa ، وشميزى Chamaizi ، وانضوت نصف الأمم الأوربية تحت لواء العلم فى الوقت الذى كان فيه ساستها يستعدون للحرب

ترى كيف تصنف هذه المادة الكثيرة — هذه القصور ، والرسوم ، والتماثيل والأختام ، والمزهريات والمعادن ، والألواح ، والنقوش ؟ — وإلى أى عصر من العصور الغابرة تضم ؟ وقد أرخ إيفنز ما كشف من الآثار حسب عمق الطبقات الأرضية التى وجدت فيها ، وما طرأ على أنماط الخزف من تطور تدريجى ، وما بين الآثار التى كشفت فى كريت وما كشف فى غيرها من البلاد من تشابه فى الشكل أو فى الغرض الذى صنعت من أجله ، والموازنة بين الطبقات التى كشفت فيها والطبقات التى يعرف تاريخها على وجه التقريب فى غير كريت . وما من شك فى أن هذه الطريقة لا تسلم من الخطأ ، ولكن البحوث التى أجريت فيما بعد ، وما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة ، تؤيدها تأييداً يتزايد على مر الأيام . وظل إيفنز يواصل أعمال الحفر تحت كنوسس حتى قابلته على بعد ثلاث وأربعين قدماً من سطح الأرض الصخور الصماء ، وكان النصف الأسفل من الأرض التى حفرها تشغله بقايا عليها طابع العصر الحجرى الحديث — من أشكال بدائية لفخار مصنوع باليد ، محلى برسوم مكونة من خطوط بسيطة ، ومن لوالب مغازل تستخدم فى الغزل والنسيج ، ومن إلهات ذوات أعجاز ضخمة من الحجر الصابونى أو الصلصال ، وأسلحة وحجارة مصقولة ؛ ولم يكن من تلك البقايا أدوات من النحاس أو البرنز . وصنف إيفنز الفخار ووازنه بما وجد منه فى مصر القديمة وبلاد النهرين ، وعلى أساس هذا التصنيف

قسم ثقافة كريت فيما بعد العصر الحجرى الحديث وفى عصر ما قبل التاريخ ثلاثة عصور : العصر المينوى المبكر . والمينوى الأوسط ، والمينوى المتأخر . ثم قسم كل عصر من هذه العصور إلى ثلاثة أطوار .

ويمثل أول ظهور النحاس — أى أبعد الطبقات التى ظهر فيها عن سطح الأرض — قيام حضارة جديدة قياماً بطيئاً من مرحلة العصر لحجرى الحديث . وقبل أن يحل العصر المينوى المبكر كان الكريتيون قد عرفوا كيف يخلطون النحاس بالقصدير ، وبدأ بذلك عصر البرنز ، وفى الطور الأول من العصر المينوى الأوسط تظهر أقدم القصور : فيقيم أمراء كنوسس ، وفستوس ، وماليا Mallia لأنفسهم مساكن مترفة كثيرة الحجرات ، ومخازن واسعة ، وحوانيت متخصصة ، ومذابح وهياكل ، ومجارى تبهر المتكبر الغربى المتعجرف ، وتجعله يغض الطرف منها استحياء . ونرى الفخار ذا ألوان كثيرة براقة ، والجدران تزينها مقرنصات ساحرة جميلة ، ونرى نوعاً من الكتابة الحرفية قد تطور من الكتابة التصويرية التى كانت فى العصر السابق .

وفى نهاية الطور الثانى من العصر المينوى الأوسط حلت بالبلاد كارثة عجيبة تركت ما يدل عليها فى الطبقات الأرضية . فقد تهدم قصر كنوسس كأن الأرض قد انشقت فحطمته ، أو لعل ذلك كان على أثر غارة قامت

(*) لما كان من المستطاع تحديد تاريخ أقدم الطبقات المحتوية على أدوات نحاسية فى كنوسس بعام ٣٤٠٠ ق. م. أى منذ ٥٣٠٠ سنة من وقتنا هذا ، وذلك بمقابلتها بآثار الحضارات المجاورة لها ؛ وإذ كانت الطبقات المحتوية على أدوات من العصر الحجر الحديث فى كنوسس تشغل نحو خمسين فى المائة من سمك مجموع عمق الأرض من سطحها إلى الطبقات الصخرية ، نقد قدر إيفنز أن العصر الحجرى الحديث فى كريت بقى ٤٥٠٠ عام على الأقل قبل معرفة المعادن ، أ من عام ٨٠٠٠ إلى ٣٤٠٠ ق. م. تقريباً . ولا حاجة إلى القول بأن تقدير الزمن بناء على عمق الطبقات الأرضية تقدير يختلف فيه العلماء كل لا ختلا ف ، لأن معدل الرسوب قد يختلف فى العصور المختلفة . وقد أدخل إيفنز فى حسابه بطء هذا المعدل بعد أن ترك موقع كنوسس ، ولم يعد موضعاً لمدينة عامرة فى القرن الرابع قبل الميلا د . ولم تو جد فى كريت أدوات من العصر الحجرى القديم .

بها فستوس التى ظل قصرها باقيا بعد ذلك فترة من الزمان . ثم أصاب فستوس ومكلوس ، وجورنيا وبليكسترو ، ومدناً أخرى كثيرة فى الجزيرة، ما أصاب كنوسس من تخريب ، فترى الفخار قد غطاه الرماد ، والجرار الكبيرة فى المخازن ملأى بالأنقاض . أما الطور الثالث من العصر المينوى الأوسط فطور ركود نسبى ، وقد يكون هو الطور الذى اضطربت فيه أحوال البلاد الواقعة فى جنوب البحر المتوسط على أثر فتح الهكسوس مصر ، ودام اضطرابها زمناً طويلا(*) .

وفى العصر المينوى المتأخر يبدأ كل شىء من جديد ، فتتجدد آمال الإنسانية التى تصبر على كل بلوى ، وتسرى فيها روح الشجاعة ، وتبدأ الحياة مرة أخرى ، فتقوم قصور جديدة أجمل من القصور السابقة فى كنوسس ، وفستوس ، وتليسوس ، وحاجيا تريادا ، وجورنيا ، فتعمها الفخامة ، وتكثر المبانى ذوات الأطباق الخمسة ، والنقوش البديعة ، وتوحى المبانى الفخمة بأن أحوال البلاد قد بلغت من الثراء ما لم تعرفه بلاد اليونان حتى عصر پركليز .

هنالك ترى دور التمثيل قد شيدت فى أفنية القصور ، وترى النساء والرجال يجالدون الوحوش لتسلية الرجال والسيدات ؛ وهؤلاء لا تزال وجوههم الأرستقراطية اليقظة الحادثة حية فى المظلمات البراقة الباقية على الجدران الجديدة . وتتضاعف حاجات الأهلين ، وترق أذواقهم ، وتزدهر الآداب ، وتنشأ مئات من الصناعات ، فيستطيع الفقراء أن يستمتعوا بالرخاء وهم يعملون ليمدوا الأغنياء بأسباب الراحة والنعيم . وترى أبهاء الملوك تدوى فيها أصوات الكتبة وهم يحصون السلع التى يوزعونها أو يتسلمونها ، وأصوات الفنانين وهم ينحتون التماثيل ، أو يرسمون الصور ، أو يصنعون

(*) إذ أراد القارىء أن يعرف كم من سنين دام كل طور من هذه الأطوار فليرجع إلى ثبت الحوادث المسلسلة فى أول هذا الباب .

الفخار ، أو ينقشون النقوش ؛ وأصـــوات كبار الموظفين يعقدون المؤتمرات ، ويستمعون إلى القضايا المستأنفة أحكامها إليهم ، أو يعثون بالأوراق مبصومة بأختامهم الجملية الدقيقة الصنع ؛ بينا ترى الأمراء ذوى الخصر النحيل والأميرات المحليات بالجواهر ، المغريات ، العاريات النحور ، يجتمعون فى وليمة ملكية يقدم لهم فيها الطعام على موائد تتلألأ عليها صحاف البرنز والذهب . لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد هما العهد الذى بلغت فيه الحضارة الإيجية ذروة مجدها وهما عصر كريت الذهبى القديم .

الفصل الثالث

حضارة تستعاد من بقاياها

إذا شئنا أن نستعيد هذه الحضارة المدفونة مما بقى من آثارها — أى أن نفعل بآثار كريت المتفرقة ما فعله كوفييه Cuvier بالعظام البشرية المشتتة — وجب علينا أن نذكر أننا نقدم بهذا العمل على مغامرة تاريخية لا تؤمن مغبتها ، وللخيال فيها شأن كبير ، لأنه هو المصدر الذى نستمد منه الصلات الحية التى تسد الثغرات وتربط المادة العلمية الضئيلة المشتتة التى يحركها المؤرخون حركة اصطناعية ، بعد أن ماتت من زمن طويل . وسيظل ما تنطوى عليه جزيرة كريت من معلومات مجهولا خافياً على العالم حتى يقيض للأسرار المخبوءة فى ألواحها عالم مثل شمپليون .

١ — الرجال والنساء

بين الكريتيين ، كما تصورهم فنانوهم ، وبين البلطة المزدوجة التى تظهر كثيراً فى رموزهم الدينية شبه غريب . فالرجال منهم والنساء لهم أجسام تدق من أعلاها ومن أسفلها حتى تنتهى فى الوسط بدائرة شديدة الضيق كطراز هذه الأيام ، ولكنه مبالغ فيه . وكلهم تقريباً قصار القامة نحاف ، لدن ، رشيقو الحركة ، ذوو أناقة رياضية . وهم بيض البشرة وقت مولدهم ؛ فأما نساؤهم اللائى يلازمن الظل فلهن وجوه بيض ، جرى عرفهم بأن تمثل فى صورهن ضاربة إلى الصفرة ؛ وأما الرجال الذين يسعون فى مناكب الأرض طلباً للرزق ، فقد لوحت الشمس وجوههم فاحمرت ، ولذلك كان اليونان يسمونهم كما كانوا يسمون الفينيقيين الفوينيقيين أى الأرجوانيي اللون ، ورؤوسهم أقرب إلى الطول منها إلى العرض ، ومعارفهم حادة دقيقة ، وشعورهم وعيونهم سوداء

براقة كشعور الإيطاليين وعيونهم فى وقتنا الحاضر . ولا جدال فى أن هؤلاء الكريتيين فرع من جنس « البحر المتوسط(*) » ؛ والرجال منهم والنساء يرسلون شعرهم ، بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم ، وبعضه فى حلقات فوق جباههم ، وبعضه الآخر فى غدائر تنوس على أكتافهم أو صدورهم . ويضيف النساء إلى ذلك أشرطة فى غدائرهن ، أما الرجال فكانوا يصطحبون معهم حتى فى قبورهم طائفة من شفرات الحلاقة ليحتفظوا بوجوههم حليقة نظيفة حتى فى القبور(١٠) .

وليست ملابسهم بأقل غرابة من أجسامهم ، فقد كان الرجال يضعون على رؤوسهم — إذا وضعوا شيئاً عليها لأنهم كانوا فى أغلب الأحيان يتركونها عارية — عمائم أو قبعات عراضاً ، وكان النساء يلبسن قبعات فخمة من طراز القبعات التى كانت منتشرة فى بداية القرن العشرين . وكانوا فى العادة حفاة الأقدام ، عدا أفراد الطبقات العليا ، فقد كانوا أحيانا ينتعلون أحذية بيضاء من الجلد ، كانت عند النساء مزركشة جميلة فى أطرافها ، مزينة سيورها بالخرز . ولم يكن الرجال فى العادة يلبسون شيئاً على أجسامهم فوق وسطهم ، أما فى أوساطهم فكانوا يلبسون تنورات قصيرة ، أو مناطق تكون أحياناً منتفخة من الأمام تأدباً واحتشاماً . وقد تكون « التنورة » مفتوحة من الجانبين عند العمال ، أما عند العظماء وفى الحفلات فكانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء على السواء . وكان الرجال يلبسون السراويل أحياناً ، وكانوا فى الشتاء يلبسون رداء خارجياً طويلا يتخذ من الصوف أو الجلد . وكانت الملابس تربط ربطاً محكما فى وسط

(*) يقسم علماء تاريخ الإنسان الطبيعى الأوربيين بعد العصر الحجرى الحديث الأقسام الثلاثة الآتية التى كانت لها على الترتيب الكثرة الغالبة فى شمال أوربا ، وسطها وجنوبها ، وهى : (١) « الجنس النوردى » أى الشمالى وأفراده طوال الرؤوس ، طوال القامة ، بيض البشرة شقر الشعر ملح العيون . (٢) « الجنس الألبى » وأفراده عراض الرؤوس ، متوسطو القامة ، عيونهم عسلية وبشرتهم ضاربة إلى السمرة . (٣) « جنس البحر المتوسط » وأفراده طوال الرؤوس قصار القامة سمر البشرة . وجدير بنا أن نعرف أنه لا يوجد من هذه الأجناس جنس خالص نقى .

الجسم ، لأن الرجال والنساء جميعاً كانوا يحرصون على أن يكونوا — أو أن يبدوا — رفيعى الوسط كأن أجسامهم تتركب من مثلثين[١١]. وأرادت النساء فى العصور المتأخرة أن ينافسن الرجال فى ضيق أوساطهن فعمدن إلى المشدات القوية تجمع تنوراتهن حول أعجازهن ، وترفع أثداءهن العارية إلى ضوء الشمس . وكان من عادات الكريتيات الظريفة أن تبقى صدورهن عارية ، أو تكشفها قمصان شفافة[١٢] ، ولم يكن أحد يتحرج من هذا أو يرى فيه غضاضة . وكان المجول يربط تحت الصدر ، ثم ينفتح فتحة دائرية غير دقيقة ، ثم يعود فينطبق انطباقا جميلا حول العنق أشبه بالطوق الميديشى لطراز . وكانت الأكمام قصيرة منتفخة فى بعض الأحيان ؛ وكانت التنورات تزدان بالثنايا والألوان الزاهية ، وتتسع كثيراً عند العجز ، وتقوّى فى أغلب الظن بأعواد من المعدن أو بأطواق أفقية الوضع . وإنا لنرى فى ترتيب ملابس الكريتيات وأشكالها تناسقا فى الألوان ، وجمالا فى الأشكال ، ورقة فى الذوق ، تنم عن حضارة غنية راقية ازدهرت فيها الفنون وارتقت أساليب الحياة . ولم يتأثر اليونان بالكريتيين فى هذه المسائل ولم تتغلب أزياؤهم على غيرها من الأزياء إلا فى العواصم الحديثة ؛ بل إن علماء الآثار أنفسهم يطلقون اسم « الباريسية » على صورة المرأة الكريتية ذات الصدر المرتفع البراق ، والعنق الجميل ، والفم المغرى ، والأنف البارز ، والجمال القوى المثير . إن هذه المرأة لتجلس أمامنا اليوم فى غير حياء مصورة فى طنف منقوش ، يطل فيه جماعة من العظماء على منظر لن يسمح لنا الزمان برؤيته ما حيينا[١٣] .

وواضح فى هذه الرسوم أن رجال كريت كانوا يحمدون لنسائها ما يخلعنه على الحياة من لطف ومغامرات ، لأنهم لا يبخلون عليهن بما يحتجن من مال يزدن به جمالهن وفتنتهن . فقد كشف فى الآثار عن حلى كثيرة مختلفة الأنواع ، من دبابيس للشعر نحاسية وذهبية ، ودبابيس ومشابك منقوشة عليها بالذهب حيوانات أو أزهار ، أو رؤوس من البلور أو المرمر ، وأقراط

مزركشة بخيوط من الذهب تختلط بالشعر ، وعصائب أو حلى من المعادن النفيسة تربطه ، وأقراط أو قلادات مدلاة من الآذان ، ومشابك وخرز وعقود على الصدر ، وأساور فى الأذرع ، وخواتم فى الأصابع من فضة ، وعقيق ، وجزع ، وجمشت ، وذهب . وكان الرجال يتحلون أيضاً ببعض هذه الحلى ، فإذا كانوا فقراء لبسوا عقوداً وأساور من حجارة عادية ، وإذا أمكنتهم مواردهم ازينوا بخواتم كبيرة نقشت عليها صور الحرب أو الصيد . ونرى الساق فى الصورة الذائعة الصيت يلبس فى عضده الأيسر إسورة عريضة من معدن نفيس ، وفى معصمه إسورة مطعمة بالعقيق . ونرى الرجل فى الحياة الكريتية أيا كان موضعه يعرض أنبل عواطفه وأشد ما يفتخر به من هذه العواطف وهى حرصه على التجمل .

وتكاد النساء أن يكن صاحبات السلطان الأعلى فى الحياة الكريتية . ذلك أن المرأة المينوية لم تكن ترضى بحياة العزلة التى كانت تسود بلاد الشرق ، ولم تكن تطيق الحجاب أو البقاء فى الدور ، وليس ثمة دليل على أنه كان للنساء أجنحة خاصة فى المنازل . لقد كانت المرأة تشتغل فى البيت بلا ريب كما تفعل بعض النساء حتى فى وقتنا هذا ، تنسج الأقمشة وتضفر السلال ، وتطحن الحب وتخبز العيش ؛ ولكنها كانت فوق ذلك تعمل مع الرجل فى الحقل وتصنع معه الفخار ، وتختلط بالرجال فى الأسواق ، وكان النساء يجلسن فى المقاعد الأمامية فى دور التمثيل وفى حلبات الألعاب ، وينتقلن فى المجتمعات الكريتية وعليهن سيماء العظمة والملل من التعظيم والتمجيد . ولما أن صاغت الأمة أربابها كان هؤلاء الأرباب فى أكثر الأحيان أشبه بالنساء منهم بالرجال . وإن العلماء المبجلين المشغفين على غير علم منهم — شغفاً لا غضاضة عليهم فيه — بصورة الأم المنقوشة على صفحات قلوبهم ليطأطئون رؤوسهم إجلالا أمام آثار المرأة فى هذه الحضارة ، ويقفون مذهولين أمام سلطانها العظيم[١٤] .

٢ — المجتمع

وسوف نفترض أن كريت فى عهدها القديم كانت تقسمها جبالها أقساماً تسكنها عشائر قليلة العدد متحاسدة متباغضة ، تقيم فى قرى منفصلة مستقلة ، يحكمها زعماؤها ، وتتقاتل كما يتقاتل سائر الناس بفطرتهم . ثم يظهر من بين هؤلاء الزعماء زعيم قدير يضم عدداً من هذه العشائر تحت سلطانه ، ويؤلف منها مملكة ، ويشيد قصره الحصين فى كنوسس أوفستوس أوتلنيوس أو غيرها من المدن ، ثم تصبح الحروب أقل عدداً وأكثر اتساعاً وأشد تقتيلا . ثم تنضم المدن كلها وتحارب دفاعاً عن الجزيرة بأجمعها وتنتصر كنوسس ؛ وتنشئ المدينة المنتصرة أسطولا بحرياً تسيطر به على بحر إيجه ، وتقضى على القراصنة ، وتفرض الخراج على غيرها من الجزائر ، وتناصر الفنون كما فعل پركليز فيما بعد[١٩] . وهكذا تقوم الحضارة فى إثر القرصنة ، والحق أن من الصعب قيام حضارة من غير سرقة كما أن من الصعب أن تبقى بغير عبيد[*] .

ويستند سلطان الملك ، كما يستدل من الآثار ، على القوة والبطش ، وعلى الدين والقانون . وهو يغوى الآلهة ويستخدمها لمعونته ليجعل طاعة الناس إياه أيسر عليهم وأقل كلفة ، ويلقن كهنته الناس أنه من نسل ڤلكانوس Volchanos ، وأنه تلقى من هذا الإله القوانين التى يصدرها ، وإذا ما كان الملك قديراً أو سخياً فإن هؤلاء الكهنة يخلعون عليه من جديد السلطة الإلهية ، ويتخذ الملك البلطة المزدوجة وزهرة الزئبق رمزاً لسلطانه كما فعلت رومة وفرنسا فيما بعد . وهو يستخدم فى تصريف شئون الدولة (كما تشير بذلك أكداس الألواح) طائفة من الوزراء وموظفى الدواوين والكتبة .

(*) يقول توكيديد ، الحذر الدقيق ، إن أول شخص معروف تزعم الرواية التاريخية أنه بنى أسطولا هو مينوس وسيطر به على البحر المعروف باسم البحر الهيليني وحكم جزائر سكلديس ... ، وقد بذل غاية جهده ليقضى على القرصنة فى ذلك البحر ، وكانت هذه خطوة لا بد منها لضمان الخراج الذى يستخدمه فى مصالحه .

وهو يجبي الضرائب عيناً ، ويختزن فى جرار ضخمة موارده من حب وزيت وخمر ، ومن هذه الموارد يؤدى رواتب رجاله عيناً . وهو يقضى وهو جالس على عرشه فى القصر من مجلسه فى بيته الملكى الصغير فيما يرفع إليه من القضايا التى مرت بمحاكمه . وقد بلغ من شهرته فى أحكامه أنه يصبح فى الدار الآخرة بعـــد موته قاضى الموتى الذين لا مفر من عرض قضاياهم عليه[٢١] ، كما يؤكد لنا هومر . ونحن نسميه فى كتابنا مينوس ولكننا لا نعرف حقيقة اسمه . ولعل هذا لقب لا اسم شبيه بلفظ فرعون أو قيصر يطلق على عدد كبير من الملوك .

وتدل هذه الحضارة فى ذروة مجدها على أنها حضارة مدن لا حضارة ريف . وتحدثنا الإلياذة عن « مدائن » كريت « التسعين » ، ويعجب اليونان الذين يفتحونها من كثرة سكانها . بل إن الدارس ليقف اليوم مرتاعاً أمام شوارعها المحطمة المرصوفة ذات المجارى ، وأمام أزقتها المتقاطعة ، وحوانيتها التى يخطئها الحصر ، وميادينها المتجمعة حول مركز من مراكز التجارة أو الحكم ، حيث نرى الرجال محتشدين يتحدثون وهم ساكنون وادعون .

وليست كنوسس وحدها هى المدينة العظيمة ذات القصور الواسعة التى تغرى الخيال على أن يبالغ فى عظمة المدينة التى كانت بلا ريب أكبر مصدر لثروة هذه القصور ، وأول ما يستفيد من ثروتها . ويقابل كنوسس على شاطئ الجزيرة الجنوبى مدينة فستوس ، ومن مينائها « تحمل قوة الريح والأمواج إلى أرض مصر السفن ذات المقدمات القاتمة ، كما يقول هومر » [٢٢] . وفى هذه المدينة تتجمع تجارة كريت المينوية الذاهبة إلى الجنوب ، مضافاً إليها الســـلع التى يأتى بها تجار الشمال الذين ينقلون بضائعهم إليها بطريق البر ليتجنبوا أخطار الطريق البحرى الطويل . وتصبح فستوس بعدئذ لكريت كما كانت بيريوس لليونان ، تحب التجارة أكثر من حبها الفن ؛ ومع هذا فإن قصر أميرها صرح فخم ، يرقى إليه بطائفة من الدرج يبلغ اتساعها

خمساً وأربعين قدماً ؛ ولا تقل أبهاؤه وأفنيته عن مثيلاتها فى كنوسس ؛ ففناؤه الأوسط مربع مرصوف يبلغ اتساعه عشرة آلاف قدم مربعة ، وحجرة الاستقبال فيه تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف ، أى أكبر من الردهة العظيمة ، ردهة البلطة المزدوجة ، فى العاصمة الشمالية .

وعلى بعد ميلين من فستوس فى اتجاه الشمال الغربى منها تقع حاجياتريادا ؛ وإلى بيتها الملكى الصغير (كما يسميه علماء الآثار) يلجأ أمير فستوس ليتقى حر الصيف . وكان طرف الجزيرة الشرقى فى الأيام المينوية غنياً بالبلدان الصغيرة : سواء أكانت ثغوراً مثل زكرو ومكلوس ، أو قرى مثل پريسوس preasus وبسيرا pseira ، أو أحياء لسكنى العظماء مثل بليكسترو ، أو مراكز صناعية مثل جورنيا . والشارع الرئيسى فى بليكسترو حسن الرصف كثير المجارى ، تقوم على جانبيه بيوت رحبة ؛ منها بيت يحتوى على ثلاث وعشرين حجرة فى الطابق الذى بقى منه حتى الآن . ولجورنيا أن تفخر بما كان فيها من شوارع واسعة مرصوفة بالجبس وبيوت مشيدة بالحجارة من غير ملاط ، وحانوت حداد لا يزال كيره باقياً إلى الآن ، وحانوت نجار وجد فيه صندوق يحتوى على عدد ، ومصانع تعج بصناع المعادن ؛ وصناع الأحذية والمزهريات ، وتكرير الزيت ، والنسيج ، وإن العمال الذين يكشفون عن تلك الآثار فى هذه الأيام ويجمعون ما فيها من مناضد ذات ثلاث قوائم ، وجرار ، وفخار ، وأفران ، ومصابيح ، ومدى ، و « هاونات » ، وأدوات للصقل . وخطاطيف ، ودبابيس ، وخناجر ، وسيوف ، نقول إن العمال الذين يكشفون الآن عن تلك الآثار ويجمعونها لتعتريهم الدهشة من كثرة ما كانت تخرجه مصانعها من أدوات مختلفة الأنواع . ويطلقون عليها اسم « مدينة الآلات »[٢٣] . وإذا قيست شوارع المدينة إلى شوارعنا فى هذه الأيام بدت لنا ضيقة ، فهى لا تزيد على أزقة من طراز أزقة المدن الشرقية الواقعة قرب المدارين ، والتى تخشى حر الشمس اللافح ، أما بيوتها المستطيلة الشكل المشيدة من الخشب أو الآجر أو الحجر ، فلا ترتفع فى الغالب

إلى أكثر من طابق واحد . غير أن ما وجد فى كنوسس من النقوش الباقية من العصر المينوى الأوسط يصور بيوتاً من طابقين أو ثلاثة ، بل ومن خمسة أحياناً ، فى أعلاها حجرة مفردة أو برج صغير فى بعض المواضع ؛ وفى الأطباق العليا من هذه البيوت المصورة نوافذ ذات ألواح حمراء مصنوعة من مادة لم تعرف بعد . و لحجرات الطابق الأسفل أبواب ذات مصراعين يدوران على قوائم لعلها من خشب السرو توصل إلى فناء ظليل . ويصعد بدرج إلى الأطباق العليا وإلى سطح المنزل حيث ينام الكريتيون فى الليالى الشديدة الحرارة . أما إذا قضوا الليل فى داخل البيوت فإنهم يضيئون بيوتهم بمصابيح زيتية تصنع من الصلصال أو حجر الصابون ، أو الجبس أو الرخام ، أو البرنز حسب ثروة أصحابها(٢٤) .

ولسنا نعلم عن ألعاب الكريتى إلا شيئاً واحداً أو شيئين لا أهمية لها ؛ فإذا كان داخل الدار فإنه يحب لعبة شبيهة بلعبة الشطرنج ، فقد خلف لنا فى خرائب قصر كنوسس لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج وعليها مربعات من الفضة والذهب ، واثنتين وسبعين قطعة من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة . فإذا كان الكريتى فى الحقول فإنه يعمد إلى الصيد بجرأة وحماسة ومعه قطط نصف برية ، وكلاب صيد أصيلة ضامرة . وإذا كان من سكان الحواضر شجع الملاكمين ، ونراه يصور على مزهرياته وفى نقوشه البارزة أنواعاً مختلفة من المباريات ، يتلاكم فيها ذوو الأوزان الخفيفة بأيديهم العارية وأقدامهم ، وذو الأوزان المتوسطة يتلاكمون بقوة ، وعلى رؤوسهم خوذ مزدانة بالريش ، وذوو الأوزان الثقيلة يدلون بخوذهم وأقنعة خدودهم وقفازاتهم الطويلة المبطنة ، ويواصلون الملاكمة حتى يسقط أحدهم على الأرض من فرط الإعياء ، ويقف الثانى فوقه يتباهى بما أحرزه من نصر(٢٥).

ولكن أكثر ما يثير حماسة الكريتى أن يشق طريقه بين الجموع التى تملأ المدرج فى يوم من أيام الأعياد ليرى الرجال والنساء يواجهون الموت أمام

هجمات الثيران الهائجة . وكثيراً ما يصور مراحل هذا الصراع الوحشى الشديد ، يصور الصائد الجرىء يقتنص الثور بأن يقفز فوق عنقه وينزل ساقيه على جانبيه وهو يشرب الماء من إحدى البرك ؛ ويصور المروض المحترف وهو يلوى رأس الثور حتى يتعلم شيئاً من الخضوع لحيل المدرب البغيضة ؛ ثم المجتلد الماهر النحيل الجسم الخفيف الحركة وهو يلتقى بالثور فى الحلبة ، ويمسك بقرنيه ، ويقفز فى الهواء ، وينقلب فوق ظهر الحيوان ، ثم ينزل برجليه على الأرض بين ذراعى فتاة تضفى على المنظر من جمالها وزشاقتها[٢٦] . ولقد أصبح هذا الصراع حتى فى كريت المينوية من الألعاب القديمة التى طال بها العهد ؛ فقد عثر فى كپدوشيا على أسطوانة من الصلصال يعزى تاريخها إلى عام ٢٤٠٠ ق . م ، وتمثل صراع ثور لا يقل فى شدته أو خطورته عما هو مصور فى المظلمات السالفة الذكر[٢٧] . وإذا ما قلبنا الفكر فى هذه اللعبة الدالة على شجاعة الإنسان وتعطشه لسفك الدماء ، والتى لا تزال منتشرة فى هذه الأيام ، وعرفنا أنها قديمة قدم الحضارة نفسها ، إذا ما فعلنا ذلك أدركت عقولنا المولعة بتبسيط الأمور والاستهانة بها — وإن كان هـــذا الإدراك لا يدوم إلا لحظات — ما فى الطبيعة البشرية من تناقض وتعقيد .

٣ — الدين

ربما كان الكريتى وحشياً قاسياً ، ولكنه كان بلا شك متديناً يتركب من مزيج بشرى كامل من الفيتشية والخرافة من جهة والمثالية وتعظيم الأرباب من جهة أخرى ؛ فهو يعبد الجبال والمغارات ، والعدد ٣ ، والأشجار ، والأعمدة ، والشمس والقمر ، والمعز والأفاعى ، واليمام والثيران ، وقلما يسلم شىء من عبادته . والهواء فى اعتقاده مملوء بالأرواح الطيب منها والخبيث ، وتنتقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفافة من جن الحراج منها الذكور ومنها الإناث .

وهو لا يعبد عضو التذكير عبادة ؛ ولكنه يعظم فى رهبة وخشوع ما فى الثور والأفعى من قوة حيوية منتجة[٢٨] . وإذ كان معدل الوفيات بين الكريتيين كبيراً فإنه يعظم الإخصاب ، وحين يسمو به تفكيره إلى إيجاد إله بشرى يصور لنفسه إلهته أماً ذات ثديين وجسم فارع الطول ، وأفاع تلتف حول ذراعيها وثديها ، وتتلوى فى شعرها أو تتدلى فى أنفة وكبرياء من رأسها . وهو يرى فى هذه الإلهة الأم الحقيقة الأساسية من حقائق الطبيعة ، وهى أن الموت عدو الإنسان الألد تغلبه قدرة الأم الخفية العجيبة على التناسل والتكاثر ، وهو لذلك يؤله هذه القدرة . فالإلهة الأم تمثل له مصدر الحياة بأجمعها فى النبات والحيوان والإنسان . وإذا ما أحاط صورتها بالحيوان والنبات فما ذلك إلا أن الحيوان والنبات يوجدان من خصوبتها الخلاقة ، وهما لذلك يرمزان لها ولما ينبعث منها . وهى تظهر فى بعض الأحيان تضم بين ذراعيها طفلا قدسياً هو ڤلكانوس ولدته فى مغارة جبلية[٢٩] . وإذا ما تأملنا هذه الصورة القديمة رأينا من خلالها إيزيس وحورس ، وإشتار وتموز ، وسيبيل وأتيس ، وأفروديتى وأدنيس ، وأحسسنا بوحدة ثقافات ما قبل التاريخ ؛ واتصال الآراء والرموز الدينية فى عالم البحر المتوسط بعضها ببعض .

وزيوس الكريتيين ، وهو الاسم الذى يطلقه اليونان على ڤلكانوس ، أقل منزلة من أمه فى حب الكريتيين ، ولكنه يزداد أهمية على مر الأيام . ففيه يتمثل المطر المخصب ، والرطوبة التى يرى هذا الدين كما يرى طاليس أنها أساس كل شىء . وهو يموت ثم يشاهد الناس ضريحه جيلا بعد جيل على جبل يوكتاس Jouktas ، ولا تزال صفحة وجهه الفخمة الجلية تظهر للسائح القوى الخيال ؛ ثم يقوم من قبره ليكون رمزاً للنبات المجدد للحياة ، ويحتفل القسيسون ببعثه المجيد بالرقص والضرب بالدروع[٣٠] ، وهو بوصفه إلهاً للخصب يتصور أحياناً كأنه حل فى جسم الثور المقدس ؛ وهو بهذه الصفة

يضاجع باسفيا زوجة مينوس فى الخرافات الكريتية فتلد له ثور مينوس المهول أو المينوتور .

ويعمد الكريتى لاسترضاء هذه الآلهة إلى طقوس لا حصر لها من الصـــلوات والتضحيات ، والرموز ، والاحتفالات ، يقيمها فى العادة كاهنات من النساء ، ويقيمها فى بعض الأحيان موظفون من رجال الدولة . وهو يطرد الشياطين ويتقى أذاها بحرق البخور ، ويستثير الإله الغافل بالنفخ فى صدفة بحر زدوجة ؛ وبالقيثارة أو الناى ، وينشد الأناشيد الجماعية تعبداً وخشوعاً . ويعمل على إنماء البساتين والحقول بإرواء أشجارها ونباتها بمراسم دينية ، وترى كاهنات البلاد وهن عاريات هائجات يهززن الأشجار التى نضجت ثمارها لتسقط حملها ، أو نساءها يسرن فى مواكب يحملن الفاكهة والأزهار يقدمنها للآلهة التى يحملنها فى هودج ويومئن بها إليها . والظاهر أن الكريتى لم يبن له معبداً ولكنه كان يقيم مذبح القربان فى بهو القصر أو فى الأيك أو المغارات المقدسة أو على قلل الجبال . وهو يزين هذه الأماكن المقدسة بأن يضع فيها مناضد يصب عليها السوائل قرباناً للأرباب ، وأصناماً مختلفة الأشكال و « قروناً قدسية » لعلها ترمز إلى الثور المقدس . والرموز المقدسة عند الكريتى لا حصر لها ، ويلوح أنه يعبد هذه الرموز كما يعبد الآلهة التى تدل عليها . ومن هذه الرموز الدرع ولعله كان يراه رمزاً للآلهة فى صورتها الحربية ، ثم الصابيب — فى صورتيه اليونانية والرومانية — يحفره على جبهة ثور أو على فخذ إلهة أو ينقشه على خواتم ، أو يقيمه من الرخام فى قصر الملك . وأهم هذه الرموز كلها البلطة المزدوجة بوصفها آلة التضحية ، وقد أضحت لها قوة سحرية عظيمة اكتسبتها من فضيلة الدم الذى تسفكه ، أو سلاحا مقدساً يهديه الإله فلا يخطئ قط ، أو رمزاً لزيوس الذى يرسل الرعد ويشق السماء بصواعقه[٣١] .

وهو إلى هذا كله يعنى بعض العناية بموتاه ، ويعبدهم عبادة لا تسمو إلى عبادة الآلهة السالفة الذكر . فهو يدفنهم فى توابيت من الصلصال أو فى جرار ضخمة ، لأنهم إذا لم يدفنوا على هذا النحو قد يعودون إلى الحياة الدنيا . وهو يعمل على أن يظلوا راضين قانعين تحت الأرض بأن يضع معهم قدراً غير كثير من الطعام ، وأدوات الزينة ، ودمى صغيرة من الصلصال فى صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر . وهو يعمد أحياناً إلى الخداع مدفوعاً برغبته فى الاقتصاد الذى يطيقه تشككه البدائى ، فيستبدل بالطعام الحقيقى حيوانات من الصلصال يضعها فى القبر إلى جانب موتاه . وإذا دفن ملكاً أو نبيلا أو تاجراً مثرياً وضع مع جثته بعض الصحاف الثمينة أو الحلى التى كانت ملكاً لصاحب هذه الجثة ، ويضع أدوات الشطرنج مع اللاعب الماهر ، ومجموعة من الآلات الموسيقية مع الموسيقى ، وقارباً مع من كان مولعاً بركوب البحار . ألا ما أكثر ما يدل عليه هذا العمل من عطف على الأموات ! وهو يأتى إلى القبر فى مواسم معينة ليقدم للموتى قرباناً من الطعام يحفظ عليهم حياتهم ، وهو يرجو أن يستقبل ردمنثس Rhademanthus الإله العادل ابن زيوس ڤلكانوس الروح الذى تطهر ليهبه السعادة والسلام اللذين لا بقاء لهما على ظهر هذه الأرض .

٤ — الثقافة

أصعب ما يواجهنا فى حضارة الكريتيين هو لغتهم . فالكريتى حين يستخدم الحروف الهجائية اليونانية بعد غزو الدوريين بلاده ، إنما يستخدمها ليدون بها كلاماً يختلف كل الاختلاف عن الكلام اليونانى المعروف وأقرب منه شبهاً بلغات الشرق الأدنى المصرية والقبرصية والحبشية والأناضولية . وقد اقتصر فى أقدم العصور على الرموز التصويرية ، ثم بدأ حوالى ١٨٠٠ ق . م

يختصر هذه الرموز إلى نحو تسعين علامة مقطعية ، وبعد مائتى عام من ذلك الوقت استنبط نوعاً آخر من الكتابة تشبه علاماته الحروف الهجائية الفينيقية : ولعل الفينيقيين قد جمعوا منـــه ومن المصريين والساميين تلك الحروف التى نشروها فيما بعد فى جميع البلاد المطلة على البحر المتوسط ، والتى أصبحت الأداة الفعالة فى الحضارة الغربية . والكريتى العامى نفسه ينطق بما توحى به إليه شاعريته ، وينقش أشعاره على جدران حاجيا تريادا ، مثله فى ذلك مثل الأخصاء من ساسة تلك الأيام . وإنا لنجد فى ڤستوس نوعاً من الكتابة باقياً من أزمنة ما قبل التاريخ . فقد كشف فى تلك المدينة قرص كبير من الطور الثالث من أطوار الحضارة المينوية الوسطى ، طبعت على صلصاله وهو لين رموز تصويرية لأصنام لكل رمز منها خاتم ؛ ولكن الذى يزيد من حيرتنا فى أمر هذه الرموز أنها ليست كريتية بل أجنبية ، وربما كان هذا القرص قد نقل إلى كريت من أحد البلاد الشرقية[٣٢] .

وربما كشفت الألواح الطينية ، التى كان الكريتى يكتب عليها ، فى يوم من الأيام ما كان عنده من العلوم . أما الآن فكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان على علم بشىء من الفلك لأنه اشتهر بأنه ملاح ماهر ؛ وتقول الرواية إن الدوريين الذين استوطنوا كريت فيما بعد قد أخذوا التقويم عن المينويين . ويعترف المصريون بأنهم مدينون للكريتيين ببعض الوصفات الطبية ، وقد أخذ عنهم اليونان بعض الأعشاب العطرية والطبية كالنعناع (mintha) ، والشيخ الرومى (aspithon) ، وعقاراً آخر مفيداً كل الفائدة يقال إنه يشفى البدانة من غير حاجة إلى الاقتصاد فى الطعام[٣٣] كما تدل على ذلك أسماء هذه الأعشاب وهذا العقار . ولكن من واجبنا ألا نضع الحدس والتخمين فى مكان التاريخ الصحيح .

وفى وسعنا أن نتأمل خرائب دور التمثيل الكريتية وإن كانت آدابهم

(شكل ٣)
الإلهة الأفعى
(متحف بوسطن)

(شكل ٢ الساق)
من قصر مينوس
(متحف هرقليوم)

لا تزال كتاباً مغلقاً محتفظاً بجميع أسراره . فقد بنى الكريتيون فى فستوس حوالى عام ٢٠٠٠ق . م عشرة صفوف من المقاعد الحجرية تمتد نحو ثمانين قدماً بجوار جدار يطل على فناء ترفرف عليه أعلام ، كما أقاموا فى كنوسس ثمانية عشر صفاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاث وثلاثون قدماً . وهذه الدور التى تتسع لعدد من النظارة يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة من أقدم ما تعرفه دور التمثيل — فهى أقدم من ملهى ديونيسيوس بألف وخمسمائة عام . ولسنا نعرف ماذا كان يحدث على مسارح هذه الدور ، فالمظلمات تصور النظارة يشاهدون منظراً ما ، ولكننا لا نعرف ماهية هذا المنظر الذى يشاهدونه ، وأكبر الظن أنه خليط من الموسيقى والرقص . وقد احتفظت لنا صورة وجدت فى كنوسس بطائفة من سيدات الطبقة الراقية ، ومن حولهن جماعة من الرجال المعجبين بهن يشاهدون رقصاً تقوم به بعض الفتيات المرحات ، ذوات « النُّقَب » فى أيكة من شجر الزيتون ، وتمثل صورة أخرى راقصة تنوس غدائرها وتمد ذراعيها ؛ وهناك صور تمثل رقصات ريفية شعبية ؛ أو رقصات الكهنة والكاهنات والمتعبدين الفوية أمام صنم أو شجرة مقدسة

ويصف هومر المرقص الذى أنشأه ديداوس يوماً من الأيام فى كنوسس العريضة لأدريادنى ذات الشعر الجميل ، وفيه يرقص ثلاثة شبان وثلاث عذارى فاتنات مغريات يتماسكون بالأيدى . . . على صوت القيثارة وتقاسيم شاعر من رجال الدين »[١٢٤] . وترى القيثارة ذات السبعة الأوتار : التى يعزو اليونان اختراعها إلى عبقرية ترپندر Terpander ، مصورة على تابوت فى حاجيا تريادا قبل أن يولد ترپندر بألف عام . وهناك أيضاً الناى والمزمار ذو الأنبوبتين والثمانية الخروق والأربع عشرة نغمة بالصورة التى نجدها عند اليونان الأقدمين . ونرى على إحدى الحلى نقشاً يمثل امرأة تنفخ فى بوق مصنوع من صدفة ضخمة كما نرى على زهرية جلاجل تضبط الوقت لأقدام أم الراقصات .

وروح النضارة والمرح والخفة التى تبعث البهجة فى رقص الكريتى ولعبه هى نفسها التى تبعث الحياة فى أعماله الفنية . ولم يخلف لنا الكريتى من مبانيه شيئاً من الأعمال ذات الأبهة والفخامة ، أو ذات الطراز الراقى العظيم ؛ بل نراه يفعل ما يفعله اليابانى فى عصر السموراى ؛ فيجد اللذة والبهجة فيما تمتاز به الفنون الصغيرة من دقة ، وفى تزيين الأدوات التى يستخدمها فى حياته اليومية ، وفى إحكام صنع الأشياء الصغيرة والوصول بها إلى درجة الكمال . وهو يقبل ما يمليه عليه العرف فى الشكل وفى الموضوع شأن كل الحضارات الأرستقراطية ، ويتحاشى البدع المفرطة فى الجدة ، ويتعلم الحرية داخل قيود الذوق والمحافظة على القديم . وقد برع الكريتى فى صناعة الفخار ، وفى قطع الجواهر ، وفى حفر مواضع الفصوص فى الخواتم ، وفى النقوش البارزة حيث تتاح له الفرصة لإظهار ما طبع عليه من مهارة ودقة . وهو لا يجد صعوبة فى صياغة الذهب والفضة ، وتركيب الأحجار الكريمة ، وصنع أنواع كثيرة من المجوهرات . وهو يحفر على الأختام التى يصنعها ليوقع بها الوثائق الرسمية والبطاقات التجارية والصكوك المالية ، يحفر على هذه الأختام كثيراً من مظاهر الحياة العادية مفصلة دقيقة ، وكثيراً من مناظر كريت الطبيعية ، تكفى وحدها لأن نتصور منها ما كانت عليه الحضارة الكريتية . وهو يصنع من البرنز طاسات ، وأباريق ، وخناجر وسيوفاً مزدانة بصور النبات والحيوان ومرصعة بالذهب والفضة والعاج والحجارة النادرة . وقد خلف لنا فى جورنيا Gournia ، رغم عبث اللصوص مدى ثلاثة آلاف عام ؛ كأساً من الفضة مصقولة صقلا فنياً جميلا ، كما خلف فى أماكن متفرقة من الجزيرة ، قروناً للشراب تبرز من رؤوس الآدميين أو الحيوان يكاد الإنسان حتى فى هذه الأيام يحس فيها أنفاس الحياة .

ولم يترك شكلا من أشكال الفخار إلا صنعه وبرز فى هذه الأشكال كلها تقريباً ، فقد صنع المزهريات ، والصحاف ، والفناجين ، وأقداح الشراب ،

والمصابيح والجرار والحيوانات والآلهة . وقد كان فى بادئ الأمر ، فى العهد المينوى الأول ، يقنع بتشكيل هذه الآنية بيده ، حسب الأنماط التى ورثها عن العصر الحجرى الحديث . وكان يطليها بطبقة زجاجية سمراء أو سوداء ويترك النار تلونها بما تشاء من الظلال . ثم عرف فى العهد المينوى الأوسط استخدام عجلة الفخرانى ليبلغ بها الذروة فى المهارة ، وهو يتطلبها فى العهد بطبقة زجاجية تماثل فى تناسقها ورقتها طلاء الخزف ، وينشر عليها فى غير نظام الألوان السوداء والسمراء ، والبيضاء ، والحمراء ، والبرتقالية ، والصفراء ، والقرمزية ، والحمراء القانية ، ويمزجها فيخرج منها ظلالا جديدة ؛ وهو يرقى الصلصال ترقيقاً وصل إلى حد الكمال فى الآنية الجميلة الزاهية الألوان الرقيقة الجدران التى وجدت فى كهف كمارس Kamares على جبل أيدا Ida ، والتى لا يزيد سمك جدرانها على ملليمتر واحد ، وقد أفرغ على هذه الآنية كل ما وهب من خصب الخيال : وبلغت صناعة الفخار فى كريت ذروة مجدها بين عامى ٢١٠٠، ١٩٥٠ ق . م وترى الصانع يوقع باسمه على ما يصنع ، ويحرص أهل بلاد البحر المتوسط على اقتناء مصنوعاته ، وفى العهد المينوى المتأخر يطبق أصول الفن إلى أقصى حد على صناعة الفخار الرقيق ، فيصنع من عجينة الفخار ألواحاً ومزهريات زرقاء فيروزجية وآلهات متعددة الألوان ، ونقوشاً لحيوانات بحرية تكاد أن تكون هى والحيوانات الحقيقية سواء . وهل هناك أدل على هذا من أن إيفنز رأى سرطاناً بحرياً من الميناء فظنه سرطاناً متحجراً (٣٥) . وفى ذلك العهد ترى الفنان يشق الطبيعة ويسره أن يمثل على آنيته أنشط الحيوانات حركة ، وأزهى الأسماك لوناً ، وأرق الأزهار أوراقاً ، وأجمل النباتات شكلا . وهو يخرج روائع الفن الخالدة فى الطور الأول من أطوار العصر المينوى المتأخر أمثال مزهرية الملاكمين ومزهرية الحصادين ؛ ففى الأولى يصور القسوة بجميع أشكالها ومواقفها فى ألعاب الملاكمة ، ويضيف إليها صوراً من حياة مصارعى الثيران ، وفى

الثانية يتتبع بمنتهى الدقة والإخلاص موكباً لعله موكب الفلاحين يمشون يغنون فى عيد ، ثم تضعف تقاليد الفخار الكريتى ويضمحل فنه ، وينسى الصناع تحفظهم وذوقهم ، فتغطى الزخارف المزهريات من أولها إلى آخرها فى غير نظام ، ويعجز الصناع عن التفكير البطىء والتنفيذ فى صبر وأناة ، ويحل الإهمال والتراخى اللذان ينتحلان اسم الحرية محل الدقة والصقل اللذين عهدناهما فى عصر كمارس . وليس من حقنا أن نلوم الكريتيين على هذا الاضمحلال فهو الموت الذى لا مفر منه والذى لابد أن يلاقيه الفن إذا بلغ سن الشيخوخة وخارت قواه ، فيستغرق فى سبات مدى ألف عام ، ثم يولد من جديد ، ويبلغ منتهى الكمال فى المزهريات الأنكية .

وفن النحت من الفنون الصغرى فى كريت ، وقلما يرقى إلى أكثر من صنع التماثيل الصغيرة إلا فى النقوش المنخفضة وفى قصة ديدلوس . وكثير من هذه التماثيل الصغرى فجة لا تخرج عن نمط واحد جرى به العرف وثبت عليه ؛ ويبدو أنها كانت تصنع من غير مثال تحتذيه . ومن هذه تمثال من العاج يمثل لاعباً رياضياً ساعة أن يقفز فى الهواء ؛ ومنها رأس جميل ضاع جسمه فى أثناء انتقاله إلينا خلال القرون الطوال . وخير هذه التماثيل يفوق فى دقة التشريح وفى وضوح الحركات كل ما عرفناه من تماثيل اليونان قبل أيام ميرون Myron . وأغربها كلها إلهة الأفاعى المحفوظة فى متحف بُسطن — وهى تمثال قوى من العاج والذهب نصفها أنثى ونصفها أفعى ؛ وفى هذا يعالج المثال آخر الأمر الجسم الآدمى بشىء من سعة الإدراك والنجاح . ولكنه حين يريد أن يمثل الضخامة يعمد فى الغالب إلى تمثيل الحيوانات ويقتصر على النقوش البارزة الملونة ، كما نرى ذلك فى رأس الثور المحفوظ فى متحف هركيولانيوم ؛ وفى هذا الأثر المدهش نرى العينين الوحشيتين ، والمنخارين الناخرين ، والفم اللاهث ، واللسان

المرتجف ، وكل هذه قد بلغت من القوة درجة لن تفوقها بلاد اليونان نفسها فى أى عهد من عهودها .

وأكثر ما يستلفت النظر فى كريت القديمة هو تصويرها . ذلك أن النحت معتل لا يؤبه له ، وما عثر عليه من الفخار قليل معظمه قطع متفرقة ، وعمارتها كلها أطلال دارسة ؛ ولكن أجمل الفنون كلها ، وهو الذى يقع فريسة سهلة لعوادى الزمان الذى لا يرحم ، قد أبقى لنا روائع نستطيع أن ندرسها وتستثير إعجابنا من عصر بلغ من القدم حداً سقط من ذاكرة اليونان الأقدمين ، وهم الذين لم يبق من تصويرهم على حداثة عهده بالقياس إلى تصوير الكريتيين صورة واحدة أصيلة . وقد أبقت الزلازل والحروب التى دكت القصور فى كريت على مظلم فى جدار هنا وآخر فى جدار هناك . وإذا ما جلنا فى هذه القصور المخربة ، وتخطينا أربعين قرناً من الزمان ، والتقينا بالرجال الذين زينوا حجرات الملوك المينويين رأيناهم فى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد يضعون على الجدران طبقة من الجير النقى ، ويهديهم تفكيرهم إلى التصوير على السطح المبلل ، فيحركون الفرشاة حركات سريعة ينفذ بها اللون إلى الطلاء قبل أن يجف سطحه . وقد استطاعوا بحذقهم أن ينقلوا إلى أبهاء القصور المظلمة جمال الحقول المكشوفة الوضاء ، فيستنبتون الجص زنبقاً ، وسوسنا ، ونرجسا ، وبردقوشا . وما من أحد شاهد هذه المناظر ثم قال مع القائلين إن روسو قد أزاح الستار عن الطبيعة . ونرى فى متحف هركيولانيوم جامع الزعفران حريصاً على قطف زهره كما صوره مصوره فى العصر المينوى الأوسط ؛ ونرى وسطه رفيعاً إلى حد ينفر منه الذوق ، كما يبدو جسمه طويلا لا يتناسب مع ساقيه ، ولكنا نرى رأسه متقن التصوير خالياً من العيوب ، ونرى الألوان هادئة والأزهار نضرة كما كانت منذ أربعة آلاف عام . وفى حاجيا تريادا يزين الرسام تابوتاً برسوم لخلائق غريبة نكاد نقول إنها نوبية منهمكة فى طقوس دينية ؛ وخير من هذا كله ما زين به أحد الجدران من أشجار متماوجة يدس بينها — وإن

لم يخفها عن العين بل يتركها واضحة جلية — قطة متحفزة ، تستعد للهجوم دون أن يراها أحد على طائر ملط بنفسه ينشنش ريشه فى الشمس . ويصل الرسام الكريتى فى العصر المينوى المتأخر إلى ذروة مجده ، فكل جدار يغريه وكل ثرى يستدعيه ، وهو لا ينقش مساكن الملوك وحدها ، بل ينقش بيوت النبلاء وأثرياء البلاد ، ويزينها بما لا يقل عن زينة بيوت بمبى . على أن نجاحه هذا وكثرة ما ينهال عليه من الطلبات لا يلبثان حتى يفسدا عليه أمره ، وسرعان ما يؤدى حرصه على أن ينتهى مما بين يديه إلى قصوره عن الارتقاء إلى ما يقرب من الكمال فيما يصنع ، فيفضل الكم على الكيف ، ويكرر رسوم الأزهار حتى يمل الناظر إليها من التكرار ، ويصور الرجال بصور لا وجود لها فى الحياة الواقعية ، ويقنع برسم الخطوط الخارجية ، وينحط بفنه إلى المستوى الذى يدرك فيه أن هذا الفن قد جاوز مجده الأعلى وأنه قد آن أوان موته . ولكن من حقه علينا أن نقول إن التصوير لم يمثل الطبيعة بمثل النضارة التى مثلها بها التصوير الكريتى ، مع جواز استثناء مصر القديمة وحدها من هذا التعميم .

وتتضافر الفنون كلها على بناء القصور الكريتية ، فالقوة السياسية ، والسيادة التجارية ، والثراء ، والترف ، وما تجمع فى البلاد من رقة وسمو فى الذوق ، كل هذا يحتم على المهندس ، والبانى ، والصانع ، والمثال ، وصانع الفخار والمعادن ، والنجار ، والمصور ، يحتم على هؤلاء كلهم أن يجمعوا ما وهبهم الله من حذق ليشيدوا به طائفة من حجرات ملكية ، ومكاتب إدارية ، وملاه ، وحلبات ألعاب لتكون محور الحياة الكريتية ومشاهد رقيها وعظمتها . يبنون فى القرن الحادى والعشرين ثم يتهدم بنيانهم فى القرن العشرين ، فإذا جاء فى القرن السابع عشر لا يكتفون فيه ببناء قصر مينوس بل يشيدون كثيراً غيره من الصروح الفخمة فى كنوسس وفى نحو خمسين مدينة أخرى فى الجزيرة المثرية الرخية . ولقد كان عصر الحضارة الكريتية من أزهى العصور فى تاريخ العمارة .

وجدير بنا أن نذكر أن الذين شادوا قصر كنوسس كانت تنقصهم وفرة مواد البناء والرجال ؛ فالمعادن قليلة فى كريت والرخاء لا وجود له فيها على الإطلاق ، ومن أجل هذا تراهم يبنون بحجر الجير والجبس ، ويستخدمون الخشب فى إنشاء الأروقة المقامة على العمد والسقف وجميع الأعمدة التى فوق الطابق الأرضى . وهم يقطعون الكتل الحجرية قطعاً محدداً دقيقاً يستطيعون به أن يضعوها فى أماكنها من غير ملاط . وبهذه الأدوات شادوا حول فناء أوسط سعته عشرون ألف قدم مربعة ثلاثة أطباق من البناء أو أربعة يرقى إليها بدرجات حجرية واسعة ، وتحتوى على ما لا حصر له من الحجرات مراكز للحراسة ، وحوانيت ، ومعاصر للخمر ، ومخازن ، ومكاتب لتصريف شئون الدولة ، ومساكن للخدم ، وحجرات للانتظار ، وأخرى للاستقبال ، ومخادع ، ومعبد ، وجب ، وحجرة عرش ، « وهو للبلطة المزدوجة » ، وبالقرب من هذه كلها دار للتمثيل ، وقصر صغير ذوحديقة ، ومقبرة . وفى الطابق الأسفل من القصر أقاموا عمداً مربعة ضخمة من الحجارة ، وأما فى الأطباق العليا فقد أقاموها من خشب السرو . والغريب فى هذه العمد أنها رفيعة من أسافلها ثم تتدرج فى السمك إلى أعاليها ، لتحمل السقف على تيجان ملساء مستديرة أو لتلقى بظلالها على جانبيها . وفى داخل هذا القصر وضع بناؤوه مقعدا حجرياً ، مستنداً فى مكان أمين إلى جدار جميل النقش ، وهذا المقعد الحجرى منحوت نحتا بسيطاً ولكنه يشهد بمهارة من نحته وحذقه ؛ ويسمى الحفارون المستكشفون هذا المقعد الحجرى عرش مينوس ، وفى وسع كل سائح جوال أن يجلس عليه فى تواضع واحتشام ويتصور نفسه برهة من الزمان مسيطراً على هذا المقعد الذى يزيد على بضعة أشبار . وأكبر الظن أن هذا القصر الفسيح هو قصر التيه الشهير (لابيرنث) أو هيكل البلطة المزدوجة (لبريس Labryth) الذى يعزوه الأقدمون إلى

ديدلوس والذى خلع اسمه فيما بعد على كل شىء كثير التعاريج سواء كان(*) حجرات أو ألفاظاً أو آذاناً(٣٦) .

وكأن الذين شادوا مدينة كنوسس قد أرادوا أن يدخلوا السرور على النفعيين أهل هذه الأيام الذين يهتمون بأنابيب المياه أكثر من اهتمامهم بالشعر ، فجهزوا القصر بنظام لصرف مائه وفضلاته أرقى من كل نظام مماثل له فى التاريخ القديم . فقد كانوا يجمعون فى قنوات حجرية الماء الذى يسيل على سفوح التلال أو ينزل من السماء ويسيرونه فى أسطوانات مجوفة إلى حمامات(**) ومراحيض ، ثم ينقاون الفضلات فى أنابيب من الصلصال المحروق مصنوعة على أحسن طراز — كل قسم منها طول قطره ست بوصات ، وطوله ثلاثون بوصة ، مزود بشرك لحجز الرواسب ، ومنته بطرف رفيع يدخل به فى القسم الذى يليه ، ويرتبط به ربطاً محكماً برباط من الأسمنت(٣٨) . وربما كان فيها جهاز يمد القصر الملكى بالماء الساخن(٣٩) (†)

وقد زين الفنانون فى كنوسس داخل القصر على سعته بأرق وسائل الزينة . فجملوا بعض الحجرات بالمزهريات والتماثيل الصغيرة ، وبعضها الآخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة ، وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية

(*) ليس قدامنا حجرات إلا افتراضا محضاً بطبيعة الحال . وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن ما استخرج من نقوش القصر قد نقل كله إلى متحف هركيو لانيوم أو غيره من المتاحف ، وأن كثيراً مما بقى منه فى موضعه قد رمم ترميماً مجرداً من الذوق .

(**) لم يعد المؤرخون الآن متفقين على أن المجوفات المربعة التى عثروا عليها فى أرض بعض الحجرات كانت حمامات ، وحجتهم فى هذا أنها لا منفذ لها وأنها مصنوعة من الجبس وهو ما يذيبه الماء شيئاً فشيئاً (٣٧) .

(†) عثر مسو **Mosso** على أنابيب للصرف شبيهة بهذه فى البيت الخلوى المقام فى حاجياتريادا ، وقد وصفها بقوله : « لقد أدهشنى أن أرى فى يوم من الأيام سقط فيه المطر مدرارا أن كل وسائل صرف المياه تعمل عملها بمنتهى الدقة والإتقان ، ولقد رأيت المياه فى البالوعات التى يستطيع الرجل أن يسير فيها واقفاً على قدميه . وإنى لأشك فى أن نظاماً آخر للصرف غير هذا النظام قد بنى يؤدى عمله بعد أربعة آلاف عام من إنشائه »(٤٠) .

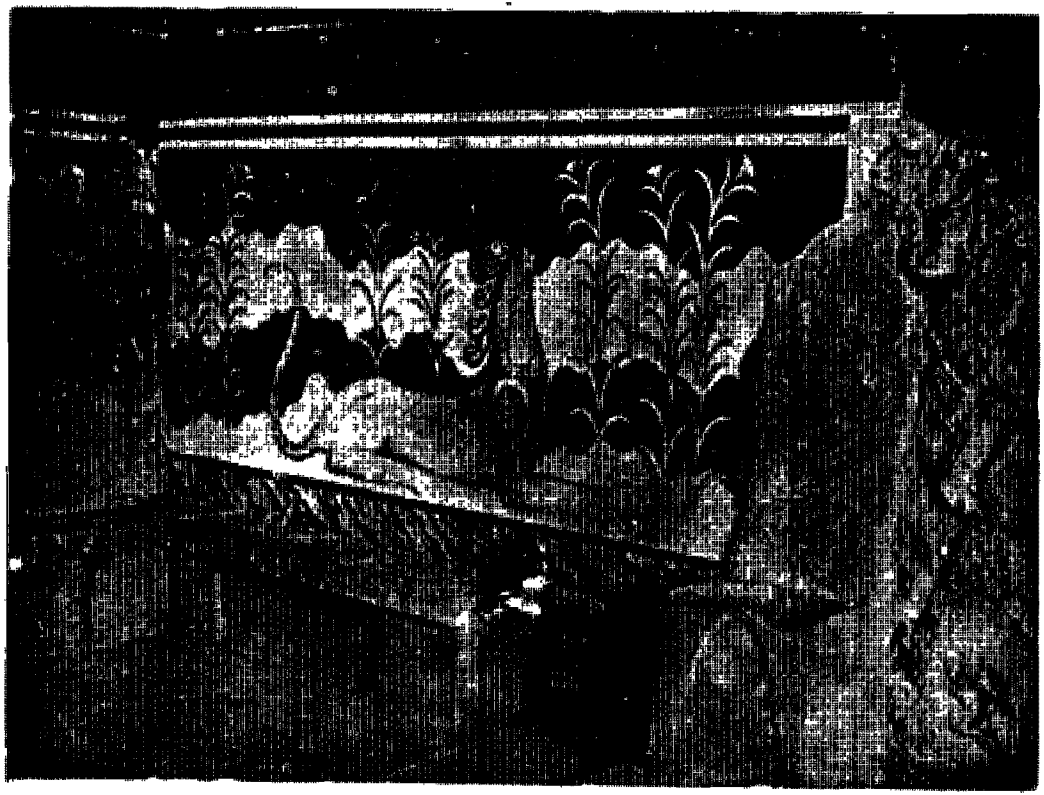

(شكل ٤) مظلم على جدار و « عرش مينوس »
(متحف هرقليوم)

الضخمة ، وبعضها بتحف من العاج أو الخزف أو البرنز ، وأقاموا حول أحد الجدران طنفاً من حجر الجير عليه ألواح ذات ثلاثة حزوز متساوية الأبعاد ، وأنصاف ورود ، ونقشوا حول جدار آخر عدداً من اللوالب على سطح طلى ليمثل الرخام ؛ وحول جدار ثالث نقشوا صراعاً بين رجل وثور ، تجلت فيه جميع دقائق الصراع بغاية الوضوح ، ونشر المصور المينوى فى جميع الأبهاء والحجرات كل ما احتواه فنه المبهج من أمجاد ، فصور لنا فى إحدى حجرات الاستقبال سيدات فى ثياب زرقاء فاجأهن وهن يثرثرن ، وأبرز معارفهن ، وأذرعهن الجميلة ، وصدورهن ، وأثداءهن الدفينة ؛ وصور على جدار غيره حقولا من الأزورد والنيلوفر وغصون الزيتون ، وعلى جدار آخر سيدات فى دار التمثيل ، ودلافين تسبح من غير حركة فى ما البحر . وخير من هذه الرسوم الصورة الرائعة الذائعة الصيت ، صورة الساقى المنتصب القامة ، والقوى البنية ، يحمل دهاناً ثميناً فى وعاء أزرق رفيع ، وقد جمّلت وجهة تربيته ويد الفنان ، وتدلى شعره فى غديرة سميكة على كتفيه الأسمرين وتلألأت الحلى فى أذنيه ، وحول عنقه وذراعيه ومنطقته ، وزين ثوبه الغالى بصور جميلة لبعض الأزهار . وما من شك فى أن هذا الساقى ليس من الرقيق ، بل هو شاب من أبناء الأشراف يفخر بما نال من شرف خدمة الملك . وجملة القول أن ليس فى مقدور حضارة ما أن تتطلب أو تخلق مثل هذا الترف وهذه الزينة إلا إذا كان قد طال عهدها بالنظام ، والثراء ، والفراغ ، وسلامة الذوق .

الفصل الرابع

سقوط كنوسس

إذا ما رجعنا إلى ما قبل هذه الحضارة الباهرة نبحث عن أصلها ، وجدنا أنفسنا نتقلب بين آسية ومصر . فالكريتيون يبدون من جهة شديدى الصلة بالشعوب الهنديربية التى تسكن آسية الصغرى ؛ ففى هـذه البلاد كما فى كريت تستخدم ألواح الصلصال للكتابة ، وكان فيها الشاقل وحدة الموازين . وفى كاريا من أعمالها كان يعبد زيوس لبرنديوس Zeus Labrandeus أى زيوس ذو البلطة المزدوجة Labrys ، وفيها كان الناس يعبدون الأعمدة والثور واليمامة ، وفى فريجيا كانت سيبيل العظيمة الشبيهة كل الشبه بالأم الإلهة فى كريت حتى لقد أطلق اليونان على هذه الأم اسم ريا سيبيل Rhea Cybele وعدوا الاثنتين إلهة واحدة !(٤٠) .

ومع هذا كله فإن الشواهد الدالة على أثر مصر فى كريت كثيرة فى كل عصر من عصور تاريخها . وقد بلغ تشابه الثقافتين فى أول عهديهما حداً جعل بعض العلماء يظنون أن موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت أيام الاضطراب الذى وقع فى عهد مينا(٤١) . فالآنية الحجرية التى كشفت فى مكلوس والأسلحة النحاسية الباقية من الطور الأول من العصر المينوى القديم ، تشبه ما وجد من نوعها فى مقابر الأسر المصرية الأولى شبهاً يثير العجب ، والبلطة المزدوجة تظهر على شكل تميمة فى مصر بل يظهر فيها كذلك « كاهن البلطة المزدوجة » . والموازين والمكاييل الكريتية مصرية فى شكلها إن كانت أسـيوية فى قيمتها ؛ والأساليب المستخدمة فى النقش على الحجارة

الكريمة ، وفى فن الخزف والتصوير تتشابه فى البلدين تشابهاً جعل اسپنجلر يعتقد أن الحضارة الكريتية ليست إلا فرعا من الحضارة المصرية(٤٢) .

ولكننا لن ننهج نهج اسپنجلر لأننا لا يجوز لنا أن نتغاضى عن فردية الأجزاء فى كلتا الحضارتين ، فالصفة الكريتية واضحة فى حضارتها كل الوضوح مميزة أشد التميز ، ولسنا نجد فى العالم القديم شيئاً آخر امتاز بالرقة فى دقائق الفن وبالرشاقة المركزة فى الحياة والفن . ولنسلم جدلا بأن الثقافة الكريتية أسيوية فى نشأتها العنصرية ، مصرية فى كثير من فنونها ، غير أنها فى جوهرها وفى كليتها تبقى حضارة فذة ، وربما كانت تنتمى إلى خليط معقد من الحضارات شأن جميع البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، حيث ورثت كل أمة فنوناً وعقائد وأساليب متماثلة متقاربة نشأت من ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث كانت واسعة الانتشار فى تلك البلاد وقامت عليها حضارتها .

ومن هذه الحضارة المشتركة أخذت كريت فى شبابها وأمدتها بقسط بعد نضجها . وبفضل حكمها ساد النظام فى الجزائر المجاورة لها ودخل تجارها فى كل ثغر من ثغورها ، ثم استقرت مصنوعاتها وفنونها فى جزائر سكلديس وعمت قبرص ، ووصلت إلى كاريا وفلسطين(٤٣) ، ثم سارت شمالا إلى آسية الصغرى والجزائر المجاورة لها حتى بلغت طروادة ، واجتازت فى ناحية الغرب إيطاليا وصقلية إلى أسپانيا(٤٤) ، وعمت بلاد اليونان حتى تسالیا ، وبقيت فى تراث اليونان عن طريق مسيسيني وتيرنز ، وبذلك كانت كريت فى تاريخ الحضارة الحلقة الأولى فى سلسلة الحضارة الأوربية .

ولسنا نعرف أى طرق الاضمحلال الكثيرة هى الطريق التى سلكتها كريت اضمحلالها ، أو لعلها سلكت هذه الطرق الكثيرة كلها ، فقد اختفى ما كانت تشتهر به من غابات السرو والأرز ، وأضحى ثلثا الجزيرة اليوم صخوراً

حجرية صماء لاتستطيع الاحتفاظ بمياه الأمطار الشتوية[٤٥] . ولعل أهلها هى أيضاً قد أسرفوا فى تحديد النسل كما تسرف سائر الحضارات فى عصور اضمحلالها، وتركوا الإكثار للعجزة والضعفاء . ولعل ازدياد الثروة والترف وما أعقبه من انهماك فى الملذات الجسمية قد أضعف ما فى السكان من حيوية ، وأضعف إرادتهم فى أن يعيشوا ويدافعوا عن أنفسهم ، ذلك أن الأمم تولد رواقية وتموت أبيقورية . ولعل انهيار مصر بعد موت إخناتون قد أحدث اضطراباً فى التجارة التى كانت قائمة بين مصر وكريت ، وقلل من ثراء الملوك المينويين ؛ وغير خاف أن كريت ليس فيها موارد داخلية واسعة ، وأن رخاءها إنما يعتمد على التجارة وعلى الأسواق الخارجية لتصريف مصنوعاتها ، ولذلك أصبحت كإنجلترا فى الوقت الحاضر تعتمد اعتماداً شديد الخطورة على سيطرتها البحرية . وربما كانت الحروب الخارجية قد قضت على الكثيرين من شبانها الأقوياء ، وتركت الجزيرة منقسمة مفككة لاتستطيع صد الغزاة الأجانب . وربما كانت الزلازل قد دكت قصورها ، أو أن أهلها قد انتقموا لأنفسهم فى ثورة عنيفة مما قاسوه من ظلم واستبداد قروناً طوالا .

ذلك ما لانعلمه علم اليقين ، وأما الذى لاشك فيه فهو أن قصر فستوس قد دمر مرة أخرى فى عام ١٤٥٠ ، وأن قصر حاجيا تريادا قد التهمته النيران ، وأن بيوت الأثرياء فى توليسوس قد اختفت من الوجود . ويلوح أن كنوسس كانت فى الخمسين سنة التى تلت ذلك العهد تستمتع بأعظم ما وصلت إليه من ثراء ، ومن سلطان لا ينازعها فيه منازع فى جميع أنحاء بحر إيجة . وفى عام ١٤٥٠ التهمت النيران قصر كنوسس نفسه ، فقد عثر إيفنز فى كل مكان فيه على شواهد دالة على اندلاع اللهب الذى لم يقو الأهلون على حصره — من كتل خشبية وأعمدة محترقة ، وأسرار مسودة ، وألواح طينية قد جمدتها حرارة النار حتى استعصت على أنياب الزمان ، ولقد كان الدمار شاملا ، وكان اختفاء المعادن حتى من الحجرات التى غطتها الأنقاض وحمتها من النيران كاملا ،

مما جعل كثيرين من العلماء يظنون أن هذا الدمار(*) من فعل الغزاة لا من فعل الزلازل(٤٦) . ومهما يكن سبب هذه الكارثة فإن الجزيرة قد أخذت بها على غرة ، ذلك أن بأما كن الفنانين وحوانيت الصناع شواهد كثيرة على أن أصحابها كانوا منهمكين فى أعمالهم حين حل الموت بهم ؛ وفى هذا الوقت عينه دكت قواعد جورنيا ، وبسيرا ، وزكرو ، وبليكسترو .

وليس لنا أن نظن أن الحضارة الكريتية قد انمحت فى يوم وليلة ، فقد أعيد بناء القصور ، ولكنها بنيت متواضعة ، وظلت لمنتجات كريت الفنية الغلبة على الفن الإيجى جيلا أو جيلين من الزمان . وفى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد نجد آخر الأمر شخصية كريتية بارزة — هى شخصية الملك مينوس التى تقص الرواية اليونانية عنها كثيراً من القصص المرعبة . من ذلك قولها إن عرائس الملك قد ضايقتهن كثرة الأفاعى والعقارب فى نطفته ، ولكن زوجته بسفائيه Pasiphae تخلصت منها بطريقة خفية عجيبة(٤٧) ، وأفلحت فى أن تلد له كثيراً من الأبناء ، منهم فيدرا Phaedra (زوجة تسيوس وحبيبه هبوليتوس) وأريدنى Ariadne ذات الشعر الأشقر . ولما أغضب مينوس بوسيدن Poseidon سلط هذا الإله على بسفائية هياما جنونياً بثور مقدس ، وأشفق عليها ديدلوس ، وبفضل صلته حملت فى ميناثور الرهيب ؛ وسجن مينوس ذلك الحيوان فى التيه الذى شاده ديدلوس إطاعة لأمره ، ولكنه كان يسترضيه بالضحايا البشرية من حين إلى حين(٤٨) .

ولعل أظرف من هذه القصة قصة ديدلوس الخرافية رغم خاتمتها المخزية ، لأنها تفتتح ملحمة من أعظم الملاحم وأشدها افتخاراً فى التاريخ . فقد مثلته

(*) إذا سمحت التواريخ التى يحددها رجال الآثار بتأخير هذا الحريق الكبير إلى ١٢٥٠ أو نحوها ، أصبح من السهل تفسير هذه الكارثة بأنها من حوادث فتح الآخيين لجزائر بحر إيجة ، ذلك الفتح الذى كان مقدمة لحصار طروادة .

الأقاصيص اليونانية فى قصة أمير أثينى حسد ابن أخيه لمهارته ، فقتله فى ساعة من ساعات غضبه ، ونفى القاتل نفياً أبدياً من بلاد اليونان عقاباً له على قتله . فلجأ ديدلوس الطريد إلى قصر مينوس ، وأدهش الملك بمهارته فى اختراع الآلات وغيرها مما لا عهد له به فقربه وجعله كبير فنانيه ومهندسيه . وكان ديدلوس مثالا حاذقاً ، وقد استخدمت الأقاصيص اسمه فجعلته رمزاً على انتقال فن النحت من الأشكال الجامدة الميتة ، إلى صور الأناس الأحياء . ويحدثنا القصاصون بأن التماثيل التى صنعها كانت شديدة الشبه بالأحياء ، حتى لقد كانت تقف على أقدامها وتمشى إذا لم تشد إلى قواعدها(٤٩) . ولكن مينوس غضب على ديدلوس حين علم بما كان له من يد فى عشق باسيفائية ، فحبسه هو وابنه إيكاروس Icarus! فى تبة اللابرنث ، فما كان من ديدلوس إلا أن صنع له ولابنه إيكاروس أجنحة استطاعا بها أن يقفزا من فوق الجدران ويطيرا فوق البحر المتوسط ، غير أن إيكاروس لم يأبه بنصيحة أبيه فاقترب من الشمس أكثر مما ينبغى ، وأذابت أشعتها الحارة ما على جناحيه من الشمع فغرق فى البحر ، وتلك خاتمة تزدان بها القصة وتكسبها مغزى أخلاقياً . وأصبح فؤاد ديدلوس فارغاً بعد موت ولده ، فنزل فى صقلية ، وبعث فى هذه الجزيرة حضارة عظيمة بعد أن نقل إليها ثقافة كريت الصناعية(*) والفنية(٥٠) .

وأشد من هذه القصة إثارة للشجن قصة ثسيوس وأدريدنى . وخلاصتها أن مينوس بعد أن انتصر فى حرب على أثينة الناشئة الفتية ، فرض على هذه

(*) يعزو بوسنياس Pausanias أول من وضع أدلة السياح ، إلى ديدلوس كثيراً من التماثيل معظمها من الخشب ، كما يعزو إليه نقشاً على الرخام يمثل أدريدنى وهى ترقص ، ويقول إنها كلها كانت موجودة فى القرن الثانى بعد الميلاد(٥١) ولم يشك اليونان يوماً من الأيام فى أن ديدلوس شخص حقيقى ؛ وإن تجارب شليمان لتجعلنا نتشكك حتى فى تشككنا . وليس أسهل على العلماء فى جيل من الأجيال من أن يرفضوا الروايات القديمة ، ثم يأتى من بعدهم جيل آخر فيؤيدها أقوى تأييد .

المدينة أن ترسل إليه كل تسع سنين جزية من سبع بنات وسبعة شبان ، يلتهمها الميناتور ، فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل ثسيوس الوسيم على أن يكون هو من بين السبعة الشبان ، ورضى أبوه الملك إيجيوس بذلك على كره منه شديد ؛ وكان ثسيوس قد صمم على قتل الميناتور والقضاء بذلك على هذه التضحية المتكررة . وأشفقت أدريدنى على الأمير الأثينى ، وأحبته ، فأعطته سيفاً مسحوراً وعلمته حيلة بسيطة هى أن يفك خيطاً مطوياً على ذراعه حين يدخل التيه . وقتل ثسيوس الميناتور وسار متتبعاً الخيط حتى جاء أدريدنى وأخذها معه حين هرب من كريت . فلما وصلا إلى جزيرة نكسوس Naxos تزوجها وفاء بوعده ، ولكنه غدر بها فأقلع هو ورفاقه ، من الجزيرة فى أثناء نومها(٥٢) .

وبعد أدريدنى ومينوس تختفى كريت من التاريخ وتظل مختفية حتى يأتى ليكورج Lycurgus إلى الجزيرة ، ولعل ذلك كان فى القرن السابع قبل الميلاد . وثمة شواهد على أن الآخيين قد وصلوا إليها فى أثناء غارتهم الطويلة على بلاد اليونان فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ؛ ولقد استوطنها الغزاة الدوريون فى أواخر الألف السنة الثانية قبل الميـــلاد .

ويقول كثيرون من الكريتيين وبعض اليونان إن ليكورج وجد فيها أمثلة يحتذيها فى قوانينه ، كما وجد صولون أمثلة لقوانينه هو أيضاً وإن لم تبلغ من الكثرة مبلغ ما وجده ليكورج . وكانت الطبقات الحاكمة فى كريت بعد أن سيطر الدوريون على الجزيرة ، تحيا حياة البساطة والتقشف فى الظاهر إن لم تكن فى الواقع ، شأنها فى ذلك شأن أسبارطة . وكان الشبان يربون تربية عسكرية ، وكان الكبار من الرجال يأكلون مجتمعين فى أبهاء كبرى معدة لهذا الغرض(*) .

(*) يعد الأثينيون هذا كله تاريخاً ، وقد ظلوا عدة قرون يحتفظون بالسفينة التى ساق فيها ثسيوس من كريت ويرممونها كلما أصيبت بأذ ، ويتخذونها سفينة مقدسة يرسلون فيها الرسل فى كل عام للاحتفال بعيد أبلو فى ديلوس .

وكانت البلاد يحكمها مجلس من شيوخ المدينة ويصرف أمورها عشرة مؤمرون Kosmci يشبهون الإفورين Ephor فى أسبارطة والأركونين Arckons فى أثينة(٥٤) . وليس من السهل علينا أن نحكم هل أخذت أسبارطة ذلك النظام عن كريت أو أخذته كريت عن أسبارطة ؛ وربما كان النظام فى المدينتين نتيجة محتومة لظروف متشابهة — هى الحياة المزعزعة التى كانت تحياها طبقة عسكرية أرستقراطية من غير أهل البلاد بين أهلها الأقنان المعادين لها . ويلوح أن قوانين جورتيانا Gortyana المستنيرة نسبياً ، والتى وجدت على جدران تلك المدينة الكريتية ، قد وضعت فى بداية القرن الخامس ؛ وليس ببعيد أن تكون هذه القوانين ، فى صورة لها أقدم منها ، قد أثرت فى المشترعين اليونان . وكان ثاليتاس Thaletas الكريتى يعلم الموسيقى فى أسبارطة فى القرن السادس قبل الميلاد ، كما كان ديبونس Dipoenus وسكليس Scyllis المثالان الكريتيان يعلمان فنانى أرجوس Argos وشيسيون Sicyon . وملاك القول أن الحضارة القديمة كانت تفرغ مشتملاتها بعشرات العشرات من القنوات فى الحضارة الجديدة .